عالم البؤس في «العمرية»، وعن حياة «ابراهيم بن فراعة» و «حميد الطبراني»، تحكي عن خروج الفلسطيني وسباته ومحاولات اليقظة، وعن ذلك الشوق الكابي الى مكان توارى. ومن قراءة السطور نلاحظ طموح الكاتب في اعادة انتاج «متشائل» آخر. ولهذا الطموح سمة ايجابية تتحدد برفض القول المباشر والمضمونية الفجة وبالسعي الى انتاج واقع متخيل او انتاج شكل فني يحكي الواقع من حيث هو شكل، بحيث يكون الشكل هو «المضمون» الحقيقي. ورغم هذه السمة الايجابية فإني استطيع ان اسجل على «الخزعندار» نقدين اساسيين. اولهما هو عدم قدرة الكاتب على التعامل مع الشخصية التي انتجها كشخصية تركيبية بشكل مستمر، اي انه انتج في البداية، ووفقا لمعايير العمل الساخر، شخصية تركيبية(تعبر عن ذاتها وعن غيرها) لكنه بعد ذلك تعامل مع هذه الشخصية كما لو كانت شخصية فردية عادية، لذلك فقد جعل مصير «الخزعندار» كمصير فرد عادي لا يمثل الا ذاته. ان هذا الانتقال من التركيبي – الجماعي الى الفردي – الهامشي كسر في اكثر من مكان بنية العمل الفني، وجعل المفارقات المرتبطة بالشخصية الساخرة مجرد مبالغات بلا معنى، اكثر من ذلك، فقد تحولت شخصيات «الخزعندار»، في اكثر من مكان، الى مجرد شخصيات هامشية ضائعة لا تحكي الا عن قدرها البائس الذي لا يستطيع ان يعبر في هامشيته عن مصير الشعب الفلسطيني. واذا كانت الشخصية الساخرة تحكي في ممارستها خصائص مرحلة وشعب، فإن ارجاع هذه الشخصية الى فرد عادي جعلها تصبح تعبيرا لـ «صعلكة والانحطاط»: «ذهب يفتش عن بعض الليرات وشيء ما يلقيه في دماغه كي يستريح من خواء فيه، ترك الناس يتشاجرون ويدبرون الامور وخرج الى ضاحية المدينة، باع بعض الاغراض واشترى حشيشا وعاد الى العمرية،...، ودخل على فاطمة اكل ودخن ونام». ص:١١٢.ان عدم القدرة على الحفاظ على اتساق الشخصية الساخرة ترك آثاره على بنية العمل المكتوب بأسره. اما النقد الآخر فيتمحور حول «الشخصيات اليهودية: المسكوبية وشبتاي». ان ادخال هذه الشخصيات في العمل المكتوب لا يعود الى ضرورة داخلية املاها العمل نفسه، بل يعود الى نزعة تبشيرية – ايديولوجية جعلت العمل يتراجع. ويتراجع، هنا، تعني ان العمل قد فقد احد العناصر الاساسية التي يقوم عليها كعمل ساخر، لان العمل الساخر يعني تصوير وضع طرفين متنازعين المصالحة بينهما مستحيلة. لذلك قلت ان ادخال شخصية شبتاي جاء عنصرا سلبيا: «ويذكر ابراهيم «شبتاي» الولد الذي لاقاه في «اربد» وعاد الى الناصرة، شبتاي الولد الذي امه يهودية وابوه صياد طبراني، شبتاي الذي قاتل اليهود، وكان ينقل الذخيرة والطعام من الحارة الشرقية الى الحارة الغربية، شبتاي كان ولدا عربيا يحب السمك والعرق واغاني الصيادين، والشجار في الحانات ويكره امه الى حد الموت، شبتاي الذي قاتل اليهود...» ص:٩١.ان ادخال شخصية في عمل روائي يحكي فترة تاريخية محددة لا يستطيع ان يلعب دورا دلاليا الا اذا كان وجوده له معنى في الصراع الذي يحكي هذه الفترة. و«شبتاي» بهذا المعنى نافل لا معنى له، فهو لا يلقي الضوء على طبيعة المرحلة. ان لم يكن يحجب هذا الضوء. مع ذلك يظل «الخزعندار» محاولة في الكتابة تطمح الى قول الجديد والى انتاج صورة للانسان الفلسطيني بعيدة عن التقديس والطهرانية.